مجلة الآداب و الحضارة الإسلامية ISSN: 1112-4628, EISSN: 2588-2449
مجلد : 13 عدد 27 السنة :2021

من مشاهد الفرح الخالص في ديوان المعتمد بن عبّاد

الأستاذة: ذباح فدوى
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
البريد الالكتروني: debbahfedoua@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2021/07/15 تاريخ القبول: 2021/10/03 تاريخ النشر: 2021 /12/30

الملخص

إنّ المعتمد بن عبّاد من أهمّ الشخصيّات الأندلسيّة في عصر الطّوائف على الصّعيدين السّياسي والأدبي ، إذ كان شاعرا بارزا ومشهورا آنذاك ، كما ترك لنا ديوانا شعريّا لم يترك مثله أحد من ملوك الطّوائف ،ولكنّه أسر من طرف يوسف بن تاشفين (ت 500هـ) أمير المرابطين إلى أغمات بالعُدوة القصوى ،وتوفّي في أسره على حال يُوحش سماعها فضلا عن مُشاهدتها ، ونظرا لما مرّ به من أحداثٍ مُؤسيةٍ في أواخر حياته، فهل هذا يعني أنّ شعره كلّه ذو طابع ألمي، أم أنّ هناك مشاهد شعريّة طبعها الفرح ؟ و إنْ وُجدت فهل هي مشاهد فرح خالص أم أنّها امتزجت بمشاعر أخرى؟ وما هي أهمّ سمات شعريّتها ؟هذا ما ستحاول هذه المقالة الكشف عنه بالدّراسة والتّحليل.

الكلمات المفتاحية: شعر – المعتمد – مشاهد – فرح – مُلك– أسر.

Abstract:

Amongst the prominent personalities of Andalusia in the Sects' Age was Al-Mutamad Ibn-Abbad on both ranks: politically and literally, at that time he was an eminent and a famous poet; also he has left us a poetic divan no one of the Sects' Kings have left like him.

Yet he was captured by Yusuf Ibn-Tashfeen (date: 500 AH) the Prince of the Almoravids into a dead-end enemy and he died in his captivity in the event of a monstrous case neither heard nor seen, and due to the tragic events he has experienced at his life-end, does this mean that all his poetry is grievous? Or are there any poetic scenes of gladness? If there are any, are they pure gladness scenes or are they comminuted with other emotions? And what are their main poetry features?

That is what this article will attempt to detect through study and analysis.

The Keywords: Poetry –Al–Mutamad –Scenes –Gladness –Monarch –Captivity.

من مشاهد الفرح الخالص في ديوان المعتمد بن عبّاد

لا يمكن الحديث عن شبه الجزيرة الإيبيريّة دون استحضار لرجالات الفتح والأدب والسّياسة ،بل لا يستقيم عود الكلام إلا إذا تحدّثنا عن مشاهير الأندلس الذين بصموا التّاريخ ببصمات خالدة ممتدّة عبرالزّمن ، ومن أهمّ مشاهير عصر الطوائف الذين حقّقوا انتصارات جمّة في سجالاتهم الفكريّة و الخطابيّة والسّياسيّة و تقلّبوا في مناصب مهمّة في الدّولة العربيّة المستوطنة لبلاد الأندلس المعتمد بن عبّاد الإشبيلي (ت 488هـ) الذي شغل مساحة واسعة من الحيّز السّياسيي والأدبي في القرن الخامس الهجري ،فكان من أهمّ ملوك الطوائف إذ كانت له اليد الطولى في تحريك مجريات الأحداث السّياسيّة، كما كان شاعرا بارزا وترك ديوانا شعريّا لم يترك مثله أحد من ملوك الطوائف من جهة أخرى ، " فمن أشهرهم بنو عبّاد ملوك إشبيلية وغرب الأندلس الذين منهم المعتمد بن عبّاد الشّهير الذكر بالمغرب و المشرق وفي الذخيرة والقلائد من أخباره ما هو كاف وشاف".([1]) فمن هو المعتمد بن عبّاد؟

اسمه الكامل هو " محمّد بن عبّاد بن محمّد بن إسماعيل بن محمدّ بن إسماعيل بن قريش بن عبّاد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطّاف بن نعيم ، لخميّ النّسب " ([2]) وقد اختلف في سنة ميلاده وفق روايتين متقاربتين فهناك من يرى أنّ " مولده في العشر الأخر من شهر ربيع الأوّل سنة اثنتين و ثلاثين وقال أبو بكر محمّد بن أبي الوليد بن زيدون : مولده سنة إحدى وثلاثين ،وكذلك قال أبو بكر بن اللّبانة"([3])وتولّى حكم إشبيليّة سنة (461هـ) بعد وفاة والده المعتضد بالله، و أسره يوسف بن تاشفين إلى أغمات بالعدوة القُصوى بعدما استولى على مملكته إشبيلية، و انتقل إلى رحمة الله تعالى بعد معاناة شديدة من سوء الحال و المرض في

([1]) - المقّري التلمساني ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب .دط .مج1.تحقيق :عباس ، إحسان.بيروت :دار صادر. 1988م.ص438.

([2])- ابن الخطيب ، لسان الدين .الإحاطة في أخبار غرناطة .ط1 .مج2.تحقيق :عنان :محمد عبد الله .القاهرة: مكتبة الخانجي . 1974م.ص108.

([3]) - ابن الأبّار، أبو بكر بن القضاعي .الحلّة السيراء .ط2 .ج2.تحقيق :مؤنس ،حسين.القاهرة:دار المعارف .1985م.ص53.

الأسر سنة (488هـ) " ثمّ انحرفت الأيّام فألوت بإشراقه، و أذوت يانع إيراقه،فلم يدفع الرّمح ولا الحسامُ، ولم تنفع تلك المنن الجسام ، فتملّك بعد الملك،و حطّ من فلكه إلى الفلك، فأصبح خائضا تذروه الرّياح وناهضا يزجيه البكا و الصّياح، قد ضجّت عليه أياديه ،و ارتجّت جوانب ناديه ، وقد أضحت منازله قد بان عنها الأنس والحبور ،و ألوت ببهجتها الصّبا والدّبور" ([1]) وبناءً عليه فإنّ الأسر كان حدّا فاصلا التّجربتين:تجربة ما قبل الأسر وتجربة ما بعده في حياة المعتمد بن عبّاد السّياسية والاجتماعيّة والأدبيّة.

لقد فارق المعتمد الحياة في أسره بأغمات " على حال يوحش سماعها فضلا عن مشاهدتها...ورزق من النّاس حبّا و رحمة فهم يبكونه إلى اليوم" ([2])، وإذا كانت نكبة المعتمد بن عبّاد إثر نزوله من القصر إلى الأسر قد استحوذت على اهتمام المؤرخين والدّارسين فإنّ المقارنة والمقابلة بين هذين الوضعين الشّاذين (الملك / الأسر)في أسريّاته ذات الطّابع الألمي هي ما دفعت المتلقي قديما و حديثا للتجاوب مع تجربته والإعجاب بشعره لما فيه مطابقة بين الصّدق النّفسي و الصّدق الفنّي([3])أي حمل المتلقّي على التّعاطف مع شعره وتحقيق المتعة الجماليّة بتوّلد الإحساس و العجائبيّة خصوصا حين يتعلّق الأمر بمثل هذه التجارب الإنسانيّة المنبثقة عن التقلّبات الزمنيّة "و الأحوال الشّاجية :منها أحوال أعقبت فيها الوحشة من الأنس و الكدر من الصّفاء ،نحو إعقاب التّنعم بالحبيب بالتّألم لفراقه...و إعقاب التّنعم بالوطن المؤنس بالتّألم لفراقه، و إعقاب التّنعم بالزّمن المسعد بالتّألم لفراقه " ([4])ومهما يكن من أمر فإنّ المعتمد يذكّرنا وهو يرسف في كبوله و ينوء تحت ثقل همومه بشخصيّات الملوك المؤثّرة في المآسي القديمة و الأساطير العتيقة([5]).

([1])- ابن خاقان ، أبو نصر الفتح .قلائد العقيان و محاسن الأعيان. 1-2.ط1.تحقيق: خريوش ،حسين يوسف..الأردن:مكتبة المنار للطّباعة والنّشر و التّوزيع.1989م.ص ص52، 53.

([2])- ابن الأبّار ،أبو بكر القضاعي .الحلّة السّيراء.ج2.ص 55.

([3])- ينظر: طحطح ،فاطمة. "الشّعر الأندلسي في تجاربه الإنسانيّة الكبرى". كرّاسات أندلسيّة.الجراري، عبّاس.ط1.الدّار البيضاء .مطبعة النّجاح الجديدة.2006م.ص152.

([4])- القرطاجني ،حازم.منهاج البلغاء وسراج الأدباء .ط3.تحقيق :ابن الخوجة ،محمّد الحبيب.بيروت :دار الغرب الإسلامي .1986م.ص358.

([5])- ينظر :بالنثيا ، آنخل جنثالث.تاريخ الفكر الأندلسي .دط .ترجمة : مؤنس ،حسين.القاهرة :الهيئة المصرية العامّة للكتاب .2011م.ص131.

و إذا كانت هناك جدليّة بين اللّذة والألم وبين الفرح والحزن وبين الحاضر والماضي ، لأنّ أحد الحدّين متضمّن في الآخر، فإنّ الحاضر يستدعي الماضي والألم يستدعي اللّذة والحزن يستدعي الفرح ،وبالنّظر إلى ما ما عايشه الشّاعر من أحداث مُؤسية في أواخر حياته فهل هذا يعني أنّ شعره كلّه ذو طابع ألمي؟ أم أنّ هناك مشاهد شعريّة طبعها الفرح ؟ و إن وجدتْ فما هي مشاهد الفرح في شعر المعتمد بن عبّاد من خلال ديوانه الشّعري ؟وهل هي مشاهد فرح خالص أم أنها تمتزج بمشاعر أخرى ؟ وما هي أهم سمات شعريّة مشاهد الفرح في هذه النّماذج الشّعرية للمعتمد بن عبّاد؟ هذا ما ستحاول هذه المقالة الكشف عنه.

إنّ اسم المعتمد بن عبّاد وذكراه نجدها في كلّ ما كُتب من أحداث تاريخيّة وقعت في عصر ملوك الطّوائف فكان بحقّ الأمير الأندلسي العربي الشّاعر بشاعريتّه الفذّة و قوّة سطوته أثناء حكم إشبيلية،ولعلّ المرحلة الأولى من حياته وهو يتقلّب بين الإمارة والملك قد تميّزت بتنافس النّدماء والشّعراء على مؤانسته وملازمته في قصوره ليسرف في بذخه وترفه ولكنّه كان عفيف النّفس وصاحب عطاء بلا حدود وذا كرم أسطوريّ ،فورد شعره تعبيرا عن تجاربه الذّاتية و تصويرا لها " فكان شعره أيّاما من حياته ،يشمل أوقات سروره ولذّاته وساعات محنته و بؤسه.وأجاد في ذلك إجادة تدعو إلى الإعجاب برقّة شعره و رقيّ خياله "([1]).

لقد عاش المعتمد في بلاط والده الملك المعتضد بالله ، فاكتسب من هذه البيئة شيئا كثيرا و مال بطبعه إلى الأدب والمجون، وكان محبّا لمجالس الشّعر و اللّهو، و استطاع أن يجعل من إشبيليّة مهبط الأدباء في الأندلس "واجتمع له من الشّعراء و أهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس،وكان مقتصرا من العلوم على علم الأدب وما يتعلّق به وينضمّ إليه ،وكان فيه مع هذا من الفضائل الذّاتية مالا يُحصى كالشّجاعة والسّخاء والحياء والنّزاهة إلى ما يناسب هذه الأخلاق الشّريفة ، وفي الجملة فلا أعلم خصلة تُحمد في رجل إلّا وهبه الله منها أوفر قسم،وضرب له فيها بأوفى سهم ،و إذا عدّت حسنات الأندلس من لدن فتحها إلى هذا الوقت فالمعتمد هذا أحدها بل أكبرها"([2])وهكذا حقّقت إشبيلية في عهد المعتمد بن عبّاد تفوّقا ثقافيّا إلى جانب ما تتمتّع به من نفوذ سياسي.

([1])- ضيف ، أحمد. بلاغة العرب في الأندلس .ط1.مصر: مطبعة مصر 1924م. ص 103.

([2])- المراكشي ، عبد الواحد.المعجب في تلخيص أخبار المغرب.الكتاب الثّالث .تحقيق : العريان ،محمد سعيد .القاهرة :مطابع شركة الإعلانات الشّرقية .1963م.ص158.

كان شعر المعتمد كلّه فعلا صورة لحياته التّي عاشها ، فترجم فيه عن عواطفه وسجّل فيه حسّه و مشاعره مترنّما بحياة تفيض بالبهجة و السّرور ، مصوّرا الأحداث الكبرى التي عاشها كشاعر وملك ،فهو من أسرة شاعرة تحبّ الشّعر و تسرّ لسماعه ، كما كان جدّه و والده من قبل" وقد كان المعتمد يعيش عيشة ترف وثراء ،ميّالا لأن يصرف وقته في اللّهو الأدبي و مجون الشّعر و مجاراة الشّعراء في قولهم. وكان يعجبه كثيرا أن يكون شاعرا و أديبا بين هؤلاء الأدباء والّشعراء ، ويجتهد في أنْ يقول الشّعر فكان حبّه لقول الشّعر وميله إلى ذلك من الأسباب التي جعلت شعره رقيقا " ([1])وبلغ من حبّه للشّعر أنّه كان لايستوزر كاتبا ولا وزيرا ما لم يكن شاعرا ، كما تزوّج من جارية كان مهرها شطر بيت من الشّعر أجازته له ،و أغرم بالشّعر حتّى كان يكتبه في رقعة الدّعوة إذا دعا و يستجيز به الشّعراء ، وكثيرا ما كان يرسل إلى وزرائه و ندمائه وشعرائه رسائل بدل منثور الكلام" وكان لا يستوزر وزيرا إلّا أن يكون أديبا شاعرا حسن الأدوات ، فاجتمع له من الوزراء الشّعراء ما لم يجتمع لأحد من قبله"([2]).

صدر المعتمدُ عن وجدانه في ساعات لهوه وعبثه مُعبّرا عن شعور قلبه ساعات الفرح وإقبال الحياة وإشراق الآمال عليه، وتولّدتْ عواطفه عن بواعث مُبهجة لنفسه ،فطربت قريحته في ساعات الأنس و تعاطي الخمرة "فقد كان حلو الفكاهة في جميع أوقاته تُشمله الخمر أحيانا فتزيد من رقّة أدبه"([3])إذ يقول في مشهد من مشاهد الفرح والأنس: (من بحر الكامل)

وَلَقَـدْ شَرِبْتُ الـرّاحَ يَسْطَـعُ نُـورُهَـا وَاللّيْـلُ قَـدْ مَـدَّ الظّـلامَ رِدَاءَ

حَـتَّى تَبَـدَّى البَـدْرُ فِي جَوْزَائِـهِ مَلِـكًا تَنَـاهَى بَهْجَـةً وَ بَهَـاءَ

لمـا أَرَادَ تَنَزُّهًـا فِي غَرْبِـهِ جَعَـلَ المظَلَّـةَ فَوْقَـهُ الجَوْزَاءَ

وَ تَنَاهَضَتْ زُهْـرُ النُّجُـومِ يَحُفُّـهُ لَأْلَاؤُهَا ، فَاسْتَكْمَـلَ الـلَّأْلَاءَ

وَ تَـرَى الكَوَاكِـبَ كَالمَوَاكِبِ حَوْلَهُ رُفِعَـتْ ثُرَيَّاهَـا عَلَيْـهِ لِـوَاءَ

([1])- ضيف ، أحمد.بلاغة العرب في الأندلس المرجع السّابق .صص102،103.

([2])- المراكشي ، عبد الواحد .المعجب في تلخيص أخبار المغرب .ص 162.

([3])- المرجع السّابق.ص 103.

وَ حَكَيْتُـــهُ فِي الأَرْضِ بَيْنَ مَـوَاكِـبٍ وَ كَوَاعِـــبٍ ، جَمَعَتْ سَنًا وَسَنَاءَ

إِنْ نَشَّـــرَتْ تِلْــكَ الدُّرُوعُ حَنَادِسًا مَلَأَتْ لَنَــا هَــذِي الكُؤُوسُ ضِيَاءَ

وَ إِذَا تَغَنَّــتْ هَــذِهِ فِي مِــزْهَــرٍ لَمْ تَــأْلُ تِلْكَ عَلَى التَّرِيــكِ غِنَاءَ ([1])

يصف المعتمد في هذه القصيدة مشهدا ليليّا مُبهجا و مُفرحا من ليالي الأنس في عاصمة الملك إشبيليّة ، اجتمعت فيه عناصر مجالس اللهو جميعها و منها الإطار الطّبيعي السّاحر بما يشتمل عليه من مكوّنات شكّلتْ خصوصيّة المكان الأندلسي وهو بين أحضان الطبيعة وسط الرّياض الغنّاء والبساتين المزهرة الجميلة و ما يُرافقها من خمرة وموسيقى " أمّا مجالسُ الأنس فهو موضوع من أهمّ ما يميّزه عند الشّعراء الملوك و القادة ،أنّه مطبوع بطابع العصر، مسكون بهواجسه، وندرة هذه النّصوص هي في حدّ ذاتها علامة من علامات العصر،ودليل على تغيّر الحياة بالأندلس" ([2])فهي ليلةٌ من ليالي السّعد والهناءة تنعّم الشّاعر فيها بكلّ لحظة من لحظاتها حين كان متربّعا على عرش الملك والسّيادة ، فطفقَ يصفُ الخمرة المتألّقة بين يديه كالبريق الوضّاء في حالك الظّلام وسواد العتمة ،ولا يزال يُعاقرها حتّى نسج الفجر خيوطه البيضاء الأولى مُعلنا عن ظهوره، ليتربّع البدر/ المعتمد على عرش الجوزاء سيّدا ملكا مزهوّا بنفسه و منزلته ، فبادرت النّجوم مُسرعة لاستقباله والاحتفاء بحضرته، و راحت تحيط به و تسطع بلآلئها من حوله ، وكأنّ مشهد المعتمد على الأرض في قصره مع ندمائه وجلسائه ليلا يقابله مشهد سماويّ آخر.

فالبدرُ رمزٌ للمعتمد يمثّل الاندفاع و الخيلاء والزّهو المصحوب بالعنفوان الشّبابي ، و الظّاهر أنّ اكتمال هيبة المعتمد لا تُضاهى إلّا باكتمال صفحة البدر في وجه السّماء " و قد لا نعجب إذا كان البدر الذي لا يزيد عمره عن الثّلاثة أيّام وهو يحتلّ في اكتماله هذا المحلّ الأرفع في شعر المعتمد"([3]) فالعمر الحقيقي للبدر

([1])- ابن عبّاد ، المعتمد.ديوان المعتمد بن عبّاد .ملك إشبيليّة .تحقيق : عبد المجيد ، حامد و بدوي ، أحمد أحمد..ط3.القاهرة :مطبعة دار الكتب المصريّة .2000م.ص28.

([2])- فارس ، عيسى وديوب ،طلال عليّ." الوصف في شعر ملوك وقادة في الأندلس بين النّعمة و النّقمة ".مجلّة جامعة تشرين للبحوث و الدراسات العلميّة.سلسلة الآداب والعلوم الإنسانيّة.مج35.العدد02.سورية :2012م.ص77.

([3])- حمّادي ، عبد الله ." الكواكب في شعر المعتمد بن عبّاد الأندلسي ". مجلّة الآداب.العدد 06.قسنطينة : 2003 م.ص60.

يبدأ ليلة أربع عشرة إذ يصادف وجوده الشّمس في مقابله فتُضاء صفحتُه كاملةً ويتمّ بذلك جماله الشّاعري و تألّقه المبدع والمندوب من قبل الشّعراء([1]).

وهكذا رسم المعتمد لوحة مُشرقةً بريشة فنّانٍ حين صوّر نفسه في مشهد أرضيّ يحيط به النّدماء و الأصحاب والجواري الحسان المتمايلات في غنج و دلال مُستخدما الألوان الزاّهية دون أن تحفل أبياته الشّعريّة بالغوص في المعاني والصّور ، معتمدا على الصّور القريبة كتشخيص البدر ملكا والنّجوم خدما،و تشبيه الظّلام بالرّداء ، مع توظيفه للمحسّنات اللّفظيّة كدلالة على حياة التّرف التّي يحياها الشّاعر كالجناس النّاقص بين اللألاء و الآلاء وبين المواكب و الكواكب وبين السّناء والسّنا " وكان صافي الذّهن نقيّ الذّوق، شريف الطّبع عليه مسحةٌ من الجلال ، عذب الحديث إذا تكلّم،حسن الاختيار في نظم الألفاظ والمعاني ،فكان شعره في جُملته رقيق الحاشية صادقا في معناه ، خاليا من التّكلف ، أكثره مأخوذٌ من حوادث حياته "([2]) وهكذا يعقدُ المعتمد موازنةً بين نفسه و البدر في السّماء ،فهو في ملكه بين مواكب من الجند وبين جوار حسناوات يَصدحْنَ بأعذب الموسيقى و أرقّ الغناء حاله كحال البدر بين الكواكب الأخرى في صفحة السّماء ليلا وقال يستدعي عودا للغناء : (من بحر الكامل)

غَلَبَ الكَرَى وَوَنَتْ مَطَايَا الرَّاحِ وَ اشْتَقْنَ شَدْوَ حُدَاتِهَا النُّصَّاحِ

فَابْعَثْ نَشَاطَ سَئُومِهَا وَحَسِيرِهَا بغناء حاديها أخى الإفصاح

ليقيم ذاك العود من رسم السّرى وَيعُودُ فِي الأَجْسَامِ بِالأَرْوَاحِ

فَنَسِيرَ فِي طُرُقِ السُّرُورِ وَنَهْتَدِي بِخَفِيِّهِنَّ بِأَنْجُمِ الأَقْدَاحِ ([3])

وفي هذه المقطوعة الشّعريّة الطّربيّة يتغنّى الشّاعر بأثر الموسيقى الممتزجة بالغناء الرّائق الجميل ومفعولها السّحري في الأرواح و الأجسام ، فهي تطرد الإعياء والكرى و تزيل السّأم و الحسرة عن النّفوس المجهدة ، لتهتدي إلى طريق السّعادة والسّرور مسترشدة بأنجم الرّاح والأقداح ، والملا حظ أنّ الشّاعر قد جمع في هذه

([1])- ينظر: المرجع نفسه .ص ن.

([2])- ضيف ، أحمد. بلاغة العرب في الأندلس .ص103.

([3])- ديوان المعتمد بن عبّاد.ص05.

القطعة الشّعريّة بين أطراف صورة تقليديّة و أخرى حضريّة مترفة ، مصوّرا نفسه مع جلسائه في قاقلة تسير بالصّحراء وقد غلب عليها الخمول والضّجر واشتاقت إلى غناء أحد حُداتها لتجدّد نشاطها و تطرد مللها منتقلا في البيتين الأخيرين إلى ربط ذلك بمشاهد الفرح في مجلس أنسه ولهوه ، أين تعزف أعذب الألحان بآلة العود يرافقه الغناء المطرب والشّراب المعتّق، فحياة المعتمد كما نرى بين راح يسطع نورها في ظُلمة اللّيل ،تحت أضواء بدر يملأ الكون بهاءً وبهجةً ، تحفّ به النّجوم المتلألئة كما تحفّ الرعيّة بملكها ، وبين عُود يعزفُ أعذبَ الألحان و أرقّ الغناء في مجلس أنسٍ ومرحٍ راسما معالم طريق السّرور والفرح ليسير فيه الحاضرون مبتهجين بعد طول كدر و سأم ران على قلوبهم .

ومن مشاهد الفرح في شعر المعتمد بن عبّاد ما ورد ذكره في رايات المبرّزين" و أنشد له أبو الوليد

الشّقندي في كتابه طُرفُ الظّرفاء ، وقد مرّ على كرمة فتعلّقت بردائه "([1]): (من بحر الوافر)

مَـرَرْتُ بِكَرْمَـةٍ جَذَبَـتْ رِدَائِي فَقُلْـتُ لهَـا :عَزَمْـتِ عَلَـى إِذَائِـي

فَقَالَـتْ : لِمْ مَـرَرْتَ وَلَمْ تُسَلِّـمْ وَقَـد رُوِيَـتْ عِظَامُـكَ مِنْ دِمَـائِي([2])

والملفت للانتباه أنّ الشّاعرَ قد ارتكز في هذه القطعة الشّعريّة على بعض العناصر القصصيّة لرواية مغامرة من مغامراته اللّاهية و الأحداث التّي كانت تصادفه وهو لا زال يدور في فلك حبّ الخمرة و ولعه بلذّاته ومسرّاته " إلّاأنّه كان مولعا بالخمر ، مُنغمسا في اللّذات ، عاكفا على البطالة ، مُخلدا إلى الرّاحة ، فكان ذلك سبب

([1])- ابن سعيد الأندلسي ،أبو الحسن عليّ بن موسى. رايات المبرّزين وغايات المميّزين .تحقيق :الدّاية ، محمد رضوان .ط1.دار طلاس للدّراسات و الترجمة والنّشر . دمشق : سوريا.1987م.ص ص 48 ،49.

([2])- ديوان المعتمد بن عبّاد .ص02.

عطبه و أصل هلاكه "([1]) ومن شدّة هُيامه بالشّراب والرّاح طفقَ يتخيّل كرمة تُحاوره وتُعاتبه على تجاهله إيّاها بعدم إلقاء السّلام عليها ،مُستغربةً كيف يُنكر فضلها وقد روى أحشاءه و عظامه من خمرها وكرومها ؟

و كأنّ هناك شخصيّةٌ بطلةٌ إلى جوار المعتمد و تغيبُ الشّخصيّات الأخرى نظرا لقصر القصّة الشّعريّة وهي قصّة بسيطة قائمة على حوار قصصي بين الشّاعر والكرمة واستطاع من خلاله الشّاعر استنطاق شخصيّة الكرمة ، فازدادت قوّة الحركة في هذه القصّة الشّعريّة القصيرة وازداد الحدث تقدّما إلى الأمام وتعمّق المدّ النفسي أكثر ، وكأنّ عتاب شجرة الكرمة للشّاعر شكّل صدمة للمتلّقي فحرّك مشاعره و شدّه إلى قراءة القصّة ومتابعة ما سيحدث بعدما استنطقها الشّاعر في هذين البيتين الشّعريين .

وهكذا دخل الحوار في صُلب الحادثة القصصيّة التّي عرضها المعتمد و أضفى نوعا من الحركة على السّرد الحكائي للأحداث ، و غدا عنصرا أساسيّا ترتكز عليه قصّة المعتمد و الكرمة ولا تقوم دونه ،ولم يغب التّصوير الفنّي عن بنية هذه القصّة الشّعريّة القصيرة عموما ، فقد تآزرت صورة "وقد رويت عظامك من دمائي" لتزيد الطّاقة التّأثيريّة الإخباريّة فجاءت الصّورة الكنائيّة جزءا لا يتجزّأ من البناء الدّاخلي للقصّة الشّعريّة وارتبطت ارتباطا وثيقا بعنصر الشّخصيّة القصصيّة، والخلاصة أنّ السّرد و الحوار" مصطلحان متداخلان تداخلا كاملا ، فالسّرد القصصي يمكن أن يعتمد على الحوار لإيصال الحدث القصصي إلى المتلقّي ،هذا الحوار الذي تتعدّد أنواعه و تقنيّاته"([2])وبهذا كان المعتمد الشّاعر شخصيّة حكائيّة موجودة داخل الحكي تُروى الأحداث على لسانه فكان جزءًا من هذه الأحداث التّي لا ينفصل عنها " وغالبا ما يكون الرّاوي في هذا العصر هو بطل السّرد الحكائي ويكون الشّخصيّة الرّئيسيّة التي تدور الأحداث حولها "([3]).

ومن مشاهد الفرح في شعر المعتمد بن عبّاد في فترة الإمارة والملك في إطار غراميّاته وتجاربه الغزليّة قوله:

(من بحر المنسرح)

([1])- ابن الأبّار ، أبو بكر القضاعي .الحلّة السّيراء.ج2.ص54.

([2])- البهلول ، عمّار إبراهيم ." السّرد الحكائي في الشّعر الأندلسي عصر الطّوائف أنموذجا ".مجلّة جامعة البعث .مج 39..العدد 46. سورية :2017م.ص155.

([3])- المرجع نفسه .ص ن.

لَاحَ وَفَاحَتْ رَوَائِحُ النَّـــــدِّ مُهْتَصَرُ الخَصْرِ أَهْيَفُ القَـــدِّ

وَكَـــمْ سَقَـــانِي وَاللَّيْـلُ مُعْتَكِـرٌ فِي جَامِـــدِ المَـــاءِ ذَائِـبِ الـوَرْدِ [1]

فمجلس المعتمد يغصّ بالجواري الملاح ذوات الحسن الأخّاذ العبق بضروب الطّيب الفوّاح ، يميّزهنّ القدّ الأهيف في مجلس شراب معتّق شهده أثناء اللّيل المعتكر " وكانت أيّامه مواسم ،وثغور برّه بواسم ، ولياليه كلّها دُررًا ، وللزّمان أحجالًا و غُررًا "[2]و لم يكن ماء الورد قليلا في الأندلس ، فلقد امتلأت ضواحيها بجبال من الورد الذي صار أصحابه يرون الفضل لمن قطف بيده ما يمنحونه منه،واستعمل عدّة استعمالات ومنها مزجه مع الشّراب وجامد الماء كما ذكر الشّاعر في هذه القطعة الشعريّة الطربيّة لاسيما في البيت الثّاني، وما يشدّ الانتباه هنا ذلك التّوازي اللغوي الذي جعل شعره متشكّلا من جمل متعادلةٍ ومتساويةٍ في تقسيمها عن طريق الإضافة خاصة في الشّطر الثّاني من البيتين الشّعريين ممّا حقّق إيقاعا موسيقيّا لهذه القطعة الطّربيّة .

و إذا كانت النّماذج الشّعريّة السّابقة تعكس بعض مشاهد الفرح الخالص في فترة الإمارة والملك للشّاعر الملك المعتمد بن عبّاد قبل الأسر ، فإنّنا نلمح ظلالًا باهتةً لمشهد فرحٍ مفتعلٍ مبطّن بألم ممضّ طافح خلال أسره في أغمات حين يقول: (من بحر البسيط)

غِرْبَانَ أَغْمَـاتَ لَا تَعْدَمْنَ طِيبَـةً مِنَ اللَّيَـالِي وَ أَفْنَانًـا مِـنَ الشَّجَـــرِ

تُظِـلُّ زُغْـــبَ فِـرَاخٍ تَسْتَكِـنُّ بِهَـا مِـنَ الحَـرُورِ ، وَ تَكْفِيهَـا أَذَى المطَرِ

كَمَـا نَعِبْتُنَّ لِي بِالفَـأْلِ يُعْجِبُـــنِي مُخَبِّرَاتٍ بِـــهِ عَـنْ أَطْيَـبِ الخَبَـــرِ

أَنَّ النُّجُـومَ التِّي غَابَتْ قَـدْ اقْتَرَبَتْ مِنَّـا مَطَالِعُهَـا تَسْـرِي إِلَى القَمَـرِ

(1)- ديوان المعتمد بن عبّاد .ص07.

(2)- ابن خاقان ، الفتح .قلائد العقيان و محاسن الأعيان .ج1،ج2.ص51.

عَلَيَّ إِنْ صَـدَّقَ الرَّحْمَـنُ مَا زَعَمَـتْ أَلَّا يُرَوِّعْـنَ مِنْ قَوْسِي وَلَا وَتَـرِي

وَاللهِ ، وَاللهِ لَا نَفَّـرْتُ وَاقِعَهَـــا وَلَا تَطَيَّـــرْتُ لِلْغِرْبَـــانِ بِالعَـوَرِ([1])

ففي الأسر و الغربة بأغمات وبعد مُرور زمنٍ ليس باليسير على المعتمد الإنسان وهو يرزح تحت أثقال قيوده تتبدّل المشاعر و تختلف عن سابق عهدها ، ويصبحُ للحياة وجهًا أليًّا غَيْرَ وجه المسرّات والملذّات و لما نعبتْ الغربانُ ذات يوم بجوار المكان الذي أُسِرَ فيهِ الشّاعر ثمّ ورد إليه نبأ قدوم بعض نسائه، طفق يتفاعل مع صوت النّعيب و يعدّه مصدرا للتّفاؤل والبُشرى لا نذير سوء وشؤم وخراب ،وتحقّقت البشرى فعلا بالزّيارة المرتقبة لبعض أهله عليه ، فواكب الحزن فرحا ، و اليأس أملا والموت حياة ، وهو ما يحقّق شعريّة المفارقة في هذا النّص " و لذا فإنّ الشّعريّة هي دهشة الوعي لما هو مفارقٌ و خارقٌ للعادة ، ومن ثمّ فإنّ الرّتابة والآليّة هي بمثابة إلغاء وعينا للأشياء . أمّا المفارقة فهي يقظة الوعي واهتزاز النّفس و انفعالها للأشياء غير المألوفة "([2]) وكأنّ الشّاعر الأسير يبحثُ عن بَصيص أمل ينقذُه من اليأس الذّي يتخبّطُ فيه مُتشبّثًا بفكرة الفرح وبثّ الأمل والتّفاؤل في نفسه حتّى عند سماع نعيب الغربان في أغمات، نظرا لتفاقم آلام وحدته و غربته و وحشته في الأسر وحماية لنفسه من وطأة الانكسار و الانسحاق النّفسي الذي أشرف عليه هناك تحت وطأة الآلام والهموم.

وبناءً على ما سبق ذكره نستنتجُ أنّ مشاهد الفرح الخالص موجودةٌ بقلّة شديدة في ديوان المعتمد بن عبّاد الإشبيلي لامتزاج شعره كلّه بالألم والوجع حتّى في فترة الأسر لا سيما في غزليّاته " ومن هنا نشأ عندهم ما يسمّى بالحبّ المعذّب الذي تفنّن الشّعراء في وصفه فرحين بالتّذلل للحبيب والخضوع له ،و قلّما حدّثنا الشّاعر عن أفراح الغرام فهو إذا في ألم دائم "([3])كقول المعتمد بن عبّاد : (من بحر المجتثّ)

يَـا لَيْتَ مُـدَّةَ بُعْـــدِكْ رَشِيقَـــةٌ مِثْـــلُ قَـــدِّكْ

([1])- ديوان المعتمد بن عبّاد.ص100.

([2])- حسين، مسلم حسب .الشّعريّة العربيّة أصولها ومفاهيمها واتّجاهاتها .ط1.منشورات ضفاف :الرّياض و بيروت .2013م.ص74.

([3])- الرّكابي ،جودت.في الأدب الأندلسي .ط7.القاهرة :دار المعارف .2008م.ص 121.

كَمُـــدَّةِ الـــــوَرْدِ، وَرْدِ الرَّبِيـــــــعِ،لَا وَرْدِ خَـــــــدِّكْ

فَعُمْـــــرُ ذَا عُمْـــرُ صَبْرِي وَعُمْـــرُ ذَا عُمْرُ صَـدِّكْ

رَضِيـــتُ مِنْـــكَ وَإِنْ لمْ تُنْجِـــزْ بِلَـــذَّةِ وَعْـــدِكْ ([1])

فالمحبُّ ذليلٌ راضٍ ، و المعشوقةُ لا ترحم وتَصدّه بقسوةٍ وتتأخّرُ في إنجاز وُعودها التّي قطعتها من قبل. ونستنتجُ أنّ أغلب شعر المعتمد تتجاذبهُ جدليّة الألم واللّذة والفرح والحزن ولكن بنسب متفاوتة ، ليسود الفرح مع اللّذة بنسبة أعلى على ظلال الألم الباهتة في شعر الإمارة والملك ،أمّا في فترة الأسر فيغلب الطّابع الألمي على الفرح المفتعل كما اتّضح من خلال النّموذج الشّعري الأخير ، وتكاد مشاعر الفرح تنعدم كليّا في شعر الأسر باستثناء هذا النّموذج الشّعري المذكور بعد استقراء كلّ الدّيوان الشّعري المذكور، نظرا لصعوبة الظّرف الذي مرّ به الشّاعر، وما سبّبه له الأسر من أزمات نفسيّة غيّرت وجه حياته كليّا من النّقيض إلى النّقيض .

وخلاصة القول إنّ من سمات شعريّة مشاهد الفرح السّابقة الذّكر اعتماد الشّاعر على آليّة شعريّة تتمثّل في الموازنة و المقابلة بين عرش الملك في الأرض و البدر في السّماء، لتسيطر ثنائيّة المعتمد (الملك/ البدر) على الأبيات الشّعريّة سيطرة مطلقة بما تتطلّبه تشكيلة كلّ مشهد في الأرض أو السّماء من عناصر ، مُضفيةً جمالها الفنّي على مشهد الفرح الشّعري ، بالإضافة إلى استحضاره لصورة تقليديّة قديمة وضمّها إلى صُورة حضريّة أندلسيّة مُترفة في جمعه بين مشهد العيس في الصّحراء ومجلس الأنس والشّراب في الأندلس ، أمّا في مشهد الفرح الثّالث فقد اعتمد الشّاعر على عنصر الحوار الخادم للسّرد الحكائي في قصّته مع الكرمة ، ليعمّق المدّ النّفسي السّائد في النّص ، كما وظّف الشّاعر آليّة المفارقة الشّعريّة في المثال الشّعري الأخير مخالفا المألوف و المتعارف عليه لدى عامّة النّاس ، وكأنّه يريد التّأكيد على أنّ الحياة في السّجن تُغيّر المواقف والمشاعر وتخرق العادة بما يُستجدّ فيها من أحداث أليمة ومواقف موجعة.

قائمة المصادر و المراجع :

([1])- ديوان المعتمد بن عبّاد .ص 10.

1- ابن الأبّار، أبو بكر بن القضاعي .الحلّة السيراء .ط2 .ج2.تحقيق :مؤنس ،حسين.القاهرة:دار المعارف .1985م.

2- ابن خاقان ، أبو نصر الفتح .قلائد العقيان و محاسن الأعيان. 1-2.ط1.تحقيق: خريوش ،حسين يوسف..الأردن:مكتبة المنار للطّباعة والنّشر و التّوزيع.1989م.

3- ابن الخطيب ، لسان الدين .الإحاطة في أخبار غرناطة .ط1 .مج2.تحقيق :عنان :محمد عبد الله .القاهرة: مكتبة الخانجي .1974م.

4- ابن سعيد الأندلسي ،أبو الحسن عليّ بن موسى. رايات المبرّزين وغايات المميّزين .تحقيق :الدّاية ، محمد رضوان .ط1.دار طلاس للدّراسات و الترجمة والنّشر . دمشق : سوريا.1987م.

5- ابن عبّاد ، المعتمد.ديوان المعتمد بن عبّاد .ملك إشبيليّة .تحقيق : عبد المجيد ، حامد و بدوي ، أحمد أحمد..ط3.القاهرة :مطبعة دار الكتب المصريّة .2000م.

6- بالنثيا ، آنخل جنثالث.تاريخ الفكر الأندلسي .دط .ترجمة : مؤنس ،حسين.القاهرة :الهيئة المصرية العامّة للكتاب .2011م.

7- البهلول ، عمّار إبراهيم ." السّرد الحكائي في الشّعر الأندلسي عصر الطّوائف أنموذجا ".مجلّة جامعة البعث .مج 39..العدد 46. سورية :2017م.

8- حسين، مسلم حسب .الشّعريّة العربيّة أصولها ومفاهيمها واتّجاهاتها .ط1.منشورات ضفاف :الرّياض و بيروت .2013م.

9- حمّادي ، عبد الله ." الكواكب في شعر المعتمد بن عبّاد الأندلسي ". مجلّة الآداب.العدد 06.قسنطينة : 2003 م.

10- الرّكابي ،جودت.في الأدب الأندلسي .ط7.القاهرة :دار المعارف .2008م.

11- ضيف ، أحمد. بلاغة العرب في الأندلس .ط1.مصر: مطبعة مصر 1924م.

12- طحطح ،فاطمة. "الشّعر الأندلسي في تجاربه الإنسانيّة الكبرى". كرّاسات أندلسيّة.الجراري، عبّاس.ط1.الدّار البيضاء .مطبعة النّجاح الجديدة.2006م.

13- فارس ، عيسى وديوب ،طلال عليّ." الوصف في شعر ملوك وقادة في الأندلس بين النّعمة و النّقمة ".مجلّة جامعة تشرين للبحوث و الدراسات العلميّة.سلسلة الآداب والعلوم الإنسانيّة.مج35.العدد02.سورية :2012م.

14- القرطاجني ،حازم.منهاج البلغاء وسراج الأدباء .ط3.تحقيق :ابن الخوجة ،محمّد الحبيب.بيروت :دار الغرب الإسلامي .1986م.

15- المراكشي ، عبد الواحد.المعجب في تلخيص أخبار المغرب.الكتاب الثّالث .تحقيق : العريان ،محمد سعيد .القاهرة :مطابع شركة الإعلانات الشّرقية .1963م.

16- المقّري التلمساني ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب .دط .مج1.تحقيق :عباس ، إحسان.بيروت :دار صادر. 1988م.